

الإحسان وروح العصر

للاستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

الإحسان في معناه الشائع اليوم بين الناس ، هو صفة خاتمة تجمع بين أمرين : طابع ذهني سليم ، وصدق إحساس نحو من قسمت عليه الحياة فسوة لم يستطع منها مخرجا .

ولعل هذا الإحساس وذلك التفكير مرجمه جميعا إلى الحياة العائلية ، وما تركه في المرء من عواطف ، وما تجره لتجارب كان بعيدا عنها كمن البعد ، لولا انغماسه في المسؤولية العائلية ، وإدراكه لها وحسن تقبله إياها . بل إن مجرد النظائر يحمل هذه المسؤولية ، قد يخلق فيه يوما ، إن قريبا أو بعيدا ، هذا الشعور بالواجب نحو الغير .

وإذا كان الشعور بواجب تحمل المسؤولية عن الغير على أشده عند الأبوين نحو طفلهما وهذا ما فرضته الطبيعة ، فإن المرء كلما ارتقى نحو الكمال الإنساني ارداد تقبلا لتحمل مسؤوليات عن غيره من لاجلته لهم — وذلك ما دعت اليه الأديان كلها . فامن دين الاوذكر الإحسان أي التكفل برعاية أولئك الذين هم أحوج ما يكونون إلى هذه الرعاية وذلك الإحسان ، وأولم الوالدان ، وذوو القربى ، ويليهم الياحى الذين لا عائل لهم ، والمساكين الذين لا يملكون قوت يومهم ، وأبناء السبيل الذين لا مأوى لهم ولا عمل إلا أن الإحسان بقى قاصرا على ما يقوم به الفرد طواعية نزولا على ما تستشفه نفسه من حب الخير ، وما يقضى به العرف الأخلاقى بين الجماعة في بيئته التي يعيش فيها ، وما يدعوه إليه دينه الذى يؤمن به . والحق أن فكرة الإحسان فى ذاتها ، وكذلك مدى تنفيذها ، كانت تتبع الطور الذى عليه المجتمع ، وتحمل طابعه ، ونتم عن النظرة الاجتماعية والنظرية الاقتصادية العامة المعمول بها فيه . فمثلا جاء على اليونان حين من الدهر كانت توجه فيه كل اهتمامها فى إمداء الاحسان إلى المواطنين من سكان المدن الذين جرقتهم فسوة الحياة ، تحت ظروف اقتصادية غير مواتية إلى التعطلى عن العمل والانتاج ، حال أن لاجلته لهم ولا عدنى لهم عن مواجهة هذه الظروف . ورغم قلة عدد هؤلاء فى العصور المتقدمة فقد كانت مشكلة مزمنة أخذ المفكرون فى كل عصر يعملون على استنباط حلول لها تتفق وروح ذلك العصر . فكان منها مثلا (١) التصديق على الفقراء علانية بإدائه الأفراد وتؤديه هيئات حكومية على نحو ما تفعل اليوم وزراء الشؤون الاجتماعية فى مصر بالمطاعم الشعبية .

وكذلك (٢) اعانة العائلات والأفراد الذين اخنى عليهم الدهر . و (٣) تمكين أفراد الشعب الذين تسرب إليهم الضعف والوهن ، بسبب الانهيار الاقتصادي أو سوء النظم ، من أن يعودوا الى سابق قدرتهم على العمل والانتاج ، رغبة في حفظ كيان الدولة سليما معافى بقدر المستطاع . و (٤) اعفاء غير القادرين على دفع الضرائب من ادائها . و (٥) الغاء ديون من لا قدرة له على سدادها . و (٦) استيلاء الدولة على الأراضي المترعة والقابلة للزراعة واعداد توزيعها بالقسطاس بين الذين يعملون في الأرض دون غيرهم . و (٧) استيلاء الدولة على الفائض من الثروة عند غير المزارعين وصرته في وجوه توفير اسباب الرزق للحتاجين . و (٨) اعانة المعوزين غير القادرين بالكساء والغذاء وبعض المال . هذه بعض وجوه الاحسان أداها الاغارقة في بعض العصور المتقدمة . غير أنهم كذلك جربوا حلولاً أخرى منها تبنى المعوزين نفياً ادارياً وفرضهم الهجرة على غير القادر على الانتاج بدعوى وجوب تناسق الرابطة الاجتماعية بين أبناء البلد الواحد . وإذا كان هذا قد كان قائماً في اليونان فقد كان لمصر عقلية أخرى تأثرت الى الحد الأبعد بالدين، وارتأت أن الإحسان هو أن توفر للحتاج ما يعوزه . وليس أدل على ذلك من كلمة وردت ضمن خطاب رفعه ثرى شعر بدنو الأجل الى القضاة الاثين والأربعين الذين سوف يتولون - في زعمه - محاكمته في الآخرة ، هذا بعض نصه :

” وقد أعطيت خبزاً للجائع وماء للمطشان وتياها للعارى وزورق لمن ليس له مركب ... “ .

أما العرب من أهل شبه الجزيرة ، وأغلبهم بدو رحل ، يجوبون الفياق طلباً في زرع ترمي عليهم أنعامهم ، ولا يستقرون في مكان إلا بقدر ما يتزودون به ، أو يتم لهم فيه بيع أو شراء ، فإن الإحسان كان عندهم لا يعدو شربة ماء أو جرعة لبن وبعض تمر النخل - وهذه ، عند الذين يعرفون حياة الصحراء ، هي أئمن وأغلى ما في الحياة .

هذه ألوان ثلاث من فهم الشعوب لمعنى الإحسان قبل قيام الثورة الصناعية التي خلقت ذبقة من الرأسمالين أصحاب المصانع الذين ظلوا مستنكبين بأن همهم الأشكر هو الحصول على عمال بأجور منخفضة ممن لم تستنفد قواهم في العمل بعد. وأجمعوا أمرهم على أن يكونوا في مأمن من تدخل الحكومة في اقتصادياتهم ، بل وسلوكوا كل سبيل كيا تنفض الحكومة يدها من الاحسان الى

الذين هم في حاجة إليه ليتوفر لهم في سوق العمل أكبر عدد ممكن من العمل بأزهد أجر .
غير أن النزعات الديمقراطية لذلك العصر اتجهت فيما يختص بالفرد، ووجهة أخرى في ميدان
الاقتصاد والاجتماع . إذ كانت ترمى إلى جعل سلطة الآباء لا تمتد إلى ما بعد بلوغ الأبناء
من الرشد . ومن ثمة الاعتقاد بأن للفرد حقوقه كما له كفاءاته التي تؤهله لأن يدير
شؤون نفسه ، دون ما حاجة إلى تدخل عائلي أو تدخل الحكومة . عندئذ أحسن الناس
بوجود إنشاء ديمقراطية أهلية للإحسان تتولى إعانة المحتاجين . وسرعان ما رأيت أن واجبتها
الأول هو تمهيد لإزكاء النفوس وتنمية القوى الطبيعية بعد أن اضطرت بسبب الدوز وما تجر
إليه الحاجة من استكانة وضعف . وقامت الجمعيات الإصلاحية تسد أزر النقابات في مطالبها
الحكومة وأصحاب العمل بتحريم تشغيل العامل وقتا إضافيا أكثر من وقت العمل اليومي ،
حتى لا تنهك قواه وحتى يتيح لغيره فرصة العمل فيكسب قوته عوضا عن أن يبقى دائما
أسير الإحسان الذي يقدم إليه وهو عاطل .

كان هذا فيما مضى من الزمان قائما ، وفي مستهل عصر النهضة شائعا ، وإن تناوله
أحرار الفكر بالتقدي والتجريح . أما اليوم فإننا نعيش في عصر أصبح الوعي الاجتماعي لدى
أهله أقوى من أي وعي آخر . بل هو ألزم من غيره لضياع سعادة الشعوب . وها هم أهل
البصيرة من أهل الاجتماع يقرون بأن تقدم الدولة في مستقبل الأيام رهين بإصلاح أحوالها
إصلاحا يرتضيه العدل الاجتماعي ، لا عدل المتسيطرين ، على أن يتمشى مع الديمقراطية
الشعبية ، لا ديمقراطية الرأسماليين . وإذن فلا عجب أن نرى كل هيئة حكومية وكل
منظمة سياسية تضع لها برنامجا اجتماعيا تدعوه وتعمل على تحقيقه ، بل لعل ذلك خيرا
كله . ومن الخير أن لا نتمنى أن أداء الإحسان على النحو العتيق الذي فصلناه تفصيلا لا يثمر
إلا التباعد بين طبقة الفقراء والمعوزين ومن إليهم وبين بقية أفراد الأمة الواحدة .

أما سبل الإحسان التي ينشدها العالم اليوم هي أولا تهيئة الحسنى إليه لأن يؤدي عملا
لائقا بمقدرته الانتاجية ، جسمانية كانت أو عقلية ، ليرتزق منه ، وإيجاد هذا العمل له
فإن كان هناك أي عائق يمنع تحقيق ذلك الوجه الأكل ، فعلى الدولة أن تبادر بذلك بإصلاح
ذلك العائق . أما إذا كان العائق قهريا ولا حيلة فيه ، فلننظر عليه الدولة من أموالها
ما يكفل له العيش والحياة المحترمة التي تليق بإنسان في مجتمع محترم

والدولة أن تسلك للحصول على المال اللازم لتحقيق جميع ذلك كل سبيل . ولا حرج في رأى علماء الاجتماع على أية حكومة في ذلك . أما إذا ما أهملت هذه الأمور فإن النتيجة الحتمية لاهمالها هي القضاء على كل أمل في اعتزاز الفرد بشخصيته وكرامته وعمله المنتج ، وبالتالي القضاء على نهضة الشعوب وسعادتها .

أما بعده فهذه هي الخطوات الأولى السريعة لمعالجة الإحسان ، أما إصلاحه الحقيقي ، وأعنى به القضاء على الأسباب التي أدت إلى عوز المحتاجين فوجب مدهم بالإحسان فهذا يشمل كل ناحية من نواحي الحياة . ولذلك قضت الحكمة أن يكون لكل حكومة ولكل منظمة سياسية برنامج اجتماعي تدعوله وتعمل على تحقيقه . وهكذا نرى أنه لا سبيل إلى إصلاح ناحية وترك غيره وإنما يجب أن يشمل الإصلاح النواحي جميعا ليكون لأى إصلاح أثره . ولعلنا نأخذ بهذا المبدأ حين نوقن بأننا سائرون اليوم ، أردنا أولم زد ، في تيار من الوعي الاجتماعي الذي يفرض نفسه فرضا على الناس .

ابراهيم ابراهيم يوسف

ولو لم يكن في كفه ، غير نفسه ، لحاد بها . . فليلق الله سائله !
"حبيب بن أوس"